شهداء نجران

رسالة شمعون اسقف «بيت أرشم»
في الاضطهاد الذي حلّ بالنصارى الحميريّين سنة ٥٢٤ للمسيح

عرّبها عن الاصل السرياني

القس يوحنا عزّو كاتم أسرار البطريركية الانطاكية

٢

(تتمة)

على اثر تلاوة رسالة ملك الحميريّين ، احتدم الملك المنذر غضباً ودعا جميع وجهاء نصارى مملكته وصاح بهم ناعياً ونافثاً: «ها قد رأيتم وسمعتم، ايها النصارى، ما حلّ بشعبكم . فكم من مرّة قلت لكم ان : تخلّوا عن المسيح . فابيتم ، ولم تسمعوا . فدعوا الآن عبادته بعد سماعكم ما ألمّ بالذين لم يكفروا به كيف تتاهم ملك الحميريّين وأبادهم واحرق بيعتهم . ألا انظروا كيف طُرد المسيح من بلاد الحميريّين والفرس والرومانيّين ، وانتم لا تذعنون لي وتتخلّون عنه . لست انا خيراً من هؤلاء الملوك الذين نفوا واجلوا النصارى من بلادهم وافنوهم قتلاً . »

ولما فاه الملك المنذر بهذا الكلام امام وجهاء نصارى مملكته استفزّت الحميّة الدينية احدهم ، ولم يتماسك عن الجواب ، فانتصب وقال للملك ببسالة : «لا يليق بك ايها الملك ان تتفوّه بمثل هذا المقال . لاننا لم نصر نصارى في عهدك حتى تبذل لنا النصح بالتخلي عن المسيح ، وتشير علينا بنكران نصرانيتنا . لكنّا نصارى من عهد آبائنا واجدادنا.» فشاط الغضب بالملك لدى هذا الجواب، وانتهره قائلاً: «أأنت تتجاسر على الكلام بحضرتي !» فاجاب الوجيه المؤمن: «اني اتكلّم من اجل دين الله ، ولا تأخذني في احد بسببه هوادة ولا يثبطني خوف. وليس في وسع ايّ كان ان يصدفني عن الكلام . فحسامي ليس بأقصر من حسام غيري في سبيل دين الله فلا أمتشقنه وانازل القتال حتى الموت ولا افزع ».

فلما رأى الملك شجاعته وما نطق به دون وجل تجـاهه ، اضرب عن الكلام واجماً من اجل عترته وسمعته ، لانه كان حسياً واحد كبراء الحيرة .

هذا وان الملك النصراني المتوّفى الذي كان الحبش ولّوه على بلاد الحميريين كان قد ارسل الى الملك المنذر وفداً من امناء الحميريين ، يتقـدّمهم رسول نصراني . وترفي اثناء وجود هذا الوفد في الحيرة . ولما نمي اليهم لبثوا فيها . فبلغهم على الاثر ما يتزل الملك اليهودي الجديد من مرّ النكال في النصارى . فاستأجروا رجلاً من الحيرة ، وارسلوه الى نجران ليستطلع طلع الاحوال فيهـا ويقف عن كثب على الحقيقة ويأتي اليهم بالانباء الصادقة . ونحن كنّا قد قدمنا من حيرة النعمان الى مخيّم المنـذر يوم الاثنين من الاسبوع الاوّل من الصوم الكبير ، فقصّ على مسمع منا هذا الرسول العائد يومئذ من نجران ما لا تحتويه رسالة الملك اليهوديّ . وروى لنا كيف ان الملك عاهد النجرانيين يمين مغلّظة ، وحنث فيها على اثر فتحهم ابواب المدينة وتسليمها اليه ، وكيف غصبهم ذهبهم وفضّتهم ، وأحرق عظام اسقفهم ، واعمل النار في البيعة ومن وجد فيها من الرهبان والشعب الى ان قال :

«فامر ان يحضر امامه جميع الوجهاء . فمثلوا بين يديه ، وكانوا يعدّون ٣٤٠ رجلاً . وطفق يتوعّد زعيمهم الحسيب « الحارث بن كعب » بقوله : « لايّ داعٍ رمت ان تعصيني وتخرج عليّ واثقاً بذاك الغاوي الساحر (يريـد به المسيح) وظننت انك تفلت من يديّ ! اني اصفح عنك ان شفقت الآن على شيبتك ، وكفرت بذاك المضلّ وبصليبه ، واستجبيك ان اصخت اليّ . والّا فتموت شرّ ميتة ، انت ، ورفقاؤك ، وسائر من لا يكفر بالمسيح والصليب . » فاجابه الشيخ الجليل :

« بالحقيقة يجب عليّ ان انحى باللوائم على جميع هؤلاء النصارى رفاقي الذين كانوا معي في المدينة ، لاني نصحت لهم فلم يعيروني أذناً صاغية . فقد كنت متأهباً لانازلك القتال وانازلك العراك من اجل المسيح ، فامـا كنت تقتلني او اقتلك ، على اني كنت واثقاً بالمسيح ربي ان احوز النصرة عليـك . لكن لم يدعني رفاقي ان اصنع ذاك . فطلبت ان اقتاد عشيرتي وعبيدي فقط واخرج الى

مبارزتك ومحاربتك ، فأوصد النصارى في وجهي ابواب المدينة ولم يفسحوا لي مجالاً للخروج اليك . فحذرتهم ان يحتفظوا بالمدينة ولا يفتحوا لك الابواب ، وكنت واثقاً بالمسيح ربّي انك غير قادر على تدويخ مدينتنا لانها حصينة لا يعوزها شيء . وبهذا ايضاً لم يعرني رفاقي سمعهم . ولما بعثت اليهم بالميثاق الغليظ أشرت عليهم ألّا يصدّقوك ، وقلت لهم : انك رجل قَلّ من الخير دجّال ، ولا عهد لك بالصدق والامانة . وفي هذا ايضاً لم يصغ اليّ رفاقي . والآن فلا عجب ان اقترحت عليّ الكفران بالمسيح الحي والتهوّد على شاكلتك ، وانا بالغ ميداء الحياة لربّما لا اعيش بعد كفراني به يوماً واحداً او ساعة واحدة ، فتريد ان تحرمني المسيح ربّي وتغرّبني عنه في شيخوختي . وأيم الحقّ انك لا تتكلم مثل ملك ، ولا تصنع نظير ملك ، والملك الكاذب ليس بملك . اننا قد شهدنا ملوكاً كثيرين ، ولكنا لم نشهد ملوكاً كاذبين . ها انا مالك امري فلا اكذبن في ملكي هذا لدى المسيح . بل حاشاي ان اكفر بالمسيح الاله الذي به آمنت من فتوّتي ، وباسمه اعتمدت ، ولصليبه أسجد ، وعنه اموت . والطوبى لي حقاً لانه أهلني لان اموت عنه في شيخوختي . الآن عرفت ان المسيح يحبّني لاني بنعمته عشت كثيراً في هذا العالم ، وزجيت ايامي بالرخاء والهناء ، ولم افتقر الى شيء قطّ . وقد اكثر لي المسيح ربّي البنين والحفداء وشرف الاحساب ، وقد حزت الغلبة بجوله في حروب عديدة ، وفي هذه الملحمة الاخيرة ايضاً سيفلجني عليك المسيح ربي بقوة صليبه . واني لواثق بأنّ ذكري من هذه المدينة ومن قبيلتي لا يزول . الآن تيقّنت اني لا اموت الى الابد ، لاني عالم ومتأكد ان الكرم اذا ما تشذّب تكثر اغصانه ويهب ثماراً غزيرة . وهكذا شعبنا نحن معاشر النصارى في هذه المدينة سينمو ويزداد بعد هذه الملحمة . فلا تتبجحن انك اتيت شيئاً . فاني اقول لك انّ هذه المدينة ستحفل بالنصرانية ، وهذه البيعة التي اعملت فيها النيران ستشاد وتملك وتأمر الملوك فينقادون اليها صاغرين ، ويتولى الدين النصراني ويمحق المذهب اليهودي ، ويزول ملكك ويضمحلّ سلطانك . »

«ولما قال هذا الشيخ الجليل الفاضل التفت وراءه ، وهتف بالمؤمنين المحتاطين

به قائلًا : « اما سمعتم يا اخوتي ما قلت لهذا اليهوديّ ؟ » فصاحوا كلهم قائلين : « سمعنا كلّ ما قلت ، يا ابانا . » فاردف : « اصحيحة هـذه الاقوال ام لا ؟ » فاجابوا : « صحيحة وصوابية . » فصاح بهم : « ان وجد بينكم من يهاب السيف ويكفر بالمسيح فلينفصل عنا . » فاجابوا : « حاشانا ! حاشانا ! ان نكفر بالمسيح ! تقرّ ، يا ابانا ، تشجّع ولا يحزننك ذلك ! فكلّنا نظيرك ، ومعك نموت عن المسيح ، ولا يلبثنّ منا احد في الحياة من بعدك . » فنادى الشيخ : « اليّ سمعكم ، يا جميع النصارى والوثنيين واليهود ، ان كفر احد بالمسيح من امرأتي او بنيّ او بناتي او عترتي او قبيلتي وتخلّف حيًّا مع هذا اليهودي الجاحد ، فلا يكون من عترتي ولا من قبيلتي . وليس له معي حصة او شركة في شيء ويعود كل ما تملكه يميني الى البيعة المزمعة ان تُشاد في هذه المدينة من بعدنا . لكن ان تخلّفت امرأتي في الحياة او احد بنيّ او بناتي لاية علّة كانت دون الكفران بالمسيح ، فيكون كل شيء له وحينئذ تختار البيعة ملكًا لها اية ثلث قرى شاءت من ملكي . »

« ولما فاه الشيخ بهذه الاقوال تجاه الشعب باسره ، التفت الى الملك وقال له : « ها قد سمعت هذا كله ، فلا من حاجة الى العودة علينا بالكلام . فحاشانا ان نكفر بالمسيح الهنا . ولا مانع من قبلنا يثبّطنا عن الموت من اجل المسيح . فدونك ما تشاء . فهذه فرصة نحيا بها الى الابد . اننا نكفر بكل من يكفر بالمسيح . نكفر بكل من لا يعترف بالمسيح الهًا وابن الاله . نكفر بكل من يوافقك ويواطئ اليهود انداداك . ها اننا ماثلون امامك ، فاصنع كلما في وسعك صنعه . والحقّ اقول لك اني في المشكاّت كنت اتقدم رفاقي بشرب الكأس الاولى ، والآن ايضاً اتقدمهم بكأس الموت هذه عن المسيح . ها اني أسلم نفسي ورفاقي جميعاً كعادتنا بعلامة الصليب الحي واقول : « باسم الآب والابن والروح القدس » ، فصاح الجمع كله قائلًا : « آمين آمين » ، ورسموا نفوسهم بعلامة الصليب صارخين معاً : « نكفر بكل من يكفر بالمسيح . تشجع ، يا ابانا ، تقرّ ! ها ان ابراهيم رئيس الآباء سنك ينتظرك . نكفر بكل من يكفر بالمسيح ويلبث حيًّا من بعدك . » . فلما رأى الطاغية ان لا وسيلة

ليكفروا بالمسيح امر بأدناهم من الوادي ، وقطع رؤوسهم وطرح جثثهم فيه . ولمّا انصبّت اقدامهم في الوادي ، قام جميعهم قُرانى ، ورفعوا ايديهم الى السماء وقالوا : « هلمّ ايها المسيح الهنا الى عوننا . قوّنا ، يا ربنا . اقبل نفوسنا ، يا يسوع . الا ليلذّك دم عبيدك المهراق من اجل اسمك ، ايها المسيح ، الهنا ! وأهلنا لمشاهدتك . ها اننا نعترف بك ، يا يسوع ، مثلما علّمتنا ، فاعترفنّ بنا مثلما وعدتنا . ايها المسيح الهنا ابنينّ البيعة هذه التي احرقها اليوم هذا اليهودي ، وأقم لها اسقفاً ، يا يسوع ، عوض عبدك القديس بولس الذي امتهن عظامه واوقدها في النار هذا الكافر . » وبعد ان انتهوا من ابتهالهم هذا صرخوا جميعاً بصوت واحد : « حيّهل الى مبادلة السلام ! » فتبادلوا جميعاً السلام . وعلى اثر ذلك بسط الشيخ اليهم يده منادياً بهم : « ليكن معنا سلام المسيح الذي منحه اللصّ على الصليب يا اخوتنا . » فبادر عندئذ الرجال البلاء ورفاقه واخذوا يسندونه ويدنون به من القتل كؤيس المشكأ فارحين وقائلين : « اقبلنّ ابانا ، وآباءنا معه ، ايها المسيح ، لاننا من اجلك نقتل » . فجثا الشيخ على ركبتيه ، ورفاقه يمسكونه مسندين يديه شبه يدي موسى النبي على رأس الجبل . فحزّ رأسه . وللحال بادر رفاقه واختطفوا دمه دالكين به وجوههم واجسامهم كحنان[1] الشهداء . واخذ كل واحد منهم يسابق رفيقه الى حيث كان يرى السيف مستلّاً ، ويجثو على ركبتيه منحنياً ، فيقع صيب السيف في عنقه حتى نال جميعهم . وكان اسم زعيمهم الشيخ الجليل « الحارث بن كعب » .

واليكم ايضاً خبراً آخر ، يا احبّاءنا ، رواه لنا ايضاً الرجل العائد من نجران ذاته قال :

« شاهدت فتى ابن ثلث سنوات قبضت عليه امه ، وخرجت مسرعة لتقتل . فلما رأى الفتى الملك جالساً ومتردّياً بزّة الملك ، ترك والدته وبادر الى تقبيل ركبتيه . فامسكه الملك وعلق يتحبب اليه قائلاً : « ماذا تبتغي ؟ اتذهب

---

(١) الحنان كلمة سريانية يراد بها تراب المحلّ الذي يتكلّل فيه الشهداء او تراب قبورهم .

مع امك فتموت ، ام تبقى عندي فتحيا ؟ . » أجاب الفتى : « رحماك ، سيّدي ، رحماك ! أبتغين الذهاب مع امي لاموت ، ولذا خرجت معها ، وقد قالت لي : حيّهل ، يا بنيّ ، نذهب نموت عن المسيح . الا دعني لانطلق فادركها لئلا تموت ولا اراها . وقد روت لي ان ملك اليهود امر ان يقتل كل من لا يكفر بالمسيح . كلّا كلّا ، يا سيّدي ، لا اكفرنّ بالمسيح ابدًا واستحبنّ الموت الاحمر على الكفران به . » قال له الملك : « من اين تعرف المسيح ؟ » اجابه الفتى : « يا سيّدي ، كل يوم اراه مع امي في البيعة . وان جئتَ الى البيعة اريتُكَ اياه . » قال له الملك : « اتحبّني ام تحبّ امك ؟ . » قال له الفتى : « اني احبّ امي اكثر منك . » فاردف الملك : « اتحبني ام تحبّ المسيح ؟ » . اجابه الفتى : « احبّ المسيح اكثر منك ، يا سيّدي ، وهو احسن منك . » قال الملك : « فلمَ اذًا اقبلت وقبّلت ركبتيّ ؟ » اجاب الفتى : « ظننتك الملك النصراني الذي شاهدته في البيعة . فلو تبادر اليّ انك يهودي ، لما اقتربت منك ، يا سيّدي . » قال له الملك : « انا اعطيك جوزًا ولوزًا وتينًا وكلّ ما ترغب . » اجابه الفتى : « لا ، وحقّ المسيح ، لا آكلن جوز اليهود ، ولا امي تأكلنه ايضاً . » قال الملك « ولمَ لا تأكله ؟ » . اجاب الفتى : « لانه نجس . الا دعني انطلق الى امي لئلا تموت وتتركني وحدي » . قال الملك : « البثّ عندي ، وكن لي ابنًا . » قال الفتى : « لا ، وحقّ المسيح ، لا البثّ عندك ، لانّ رائحتك منتنة ورائحة امي ذكيّة خير من رائحتك . » فتوغّر صدر الملك غيظًا وقال للماثلين امامه : « انظروا الجرثومة الشريرة ! كيف ينطق منذ ترعرعه . انظروا كيف استطاع ذاك المضلّ الساحر (اي المسيح) ان يطغي الولدان والرضعان ايضاً . » فابتدر احد عظماء الملك وقال للفتى : « هَا ! هَا معي فآخذك الى الملكة تصير لك امًّا . » اجابه الفتى : « تبًّا لك ! وقبحًا لفعلك ، يا رجل ، ان امي خيرٌ لي من الملكة . فهي تذهب بي الى البيعة . ألا دعني اذهب ، لانها قد ذهبت وتركتني وحدي . » ولما سئم الفتى من كثرة الملاجات ، ورأى انّ الملك لا يدعه ان يلتحق بامه ، عضّه في فخذه هاتفًا به : « دعني انطلق الى امي . دعني ، ها هي تموت ، واروم ان اموت معها . » فحمل الملك الفتى ، محرّقًا عليه الارم ، ودفعه الى احد كبرائه

موعزاً اليه ان يحترس به الى ان يكبر. فان كفر بالمسيح يعش، والا فيموت. فتناوله ذاك منه ودفعه الى احد عبيده ليحتفظ به، والفتى يرلول ناحاً، ويخبط رجليه، ويستصرخ امه داعياً اياها وقائلاً: «يا امي، يا امي، ها ان اليهود يأخذونني. تعالي خذيني لاذهب معك الى البيعة.» وكانت امه ترنو اليه فاجابته: «اذهب، يا بنيّ، فقد اودعتك المسيح. لا تبكين يا حشاشة كبدي. ها اني آتية اليك. اذهب واستمرنّ في البيعة عند المسيح، حتى أجيء وآخذك. لا تولولنّ يا حبيبي. فالمسيح ثمّ في البيعة امكثنّ عنده. ابقَ عنده، يا بنيّ، اني آتية وراءك.» ولمّا فاهت بهذا حزّوا رأسها[1].»

اليكم خبراً آخر، ايها المؤمنون الاعزاء، رواه لنا ايضاً الرسول نفسه الجاثي من نجران قال:

اني رأيت صغرى بنات تلك الطوباوية الحسية، واسمها «دوما»، وعمرها تسع سنوات، لما سمعت الملك اليهودي يقول لامها ان: «ابصقي على الصليب، واكفري بالمسيح» ملأت فمها بصاقاً ورمت به وجه الملك قائلة: «ليبصق في وجهك، يا مَن تتجرأ وتقول للشريفة امي، دون خزي، ان تبصق على الصليب الحيّ وتكفر بالمسيح وبالصليب نظيرك. لعمري! أنّ المسيح ليعرف ان امي أحسن من امك، وعترتي اشرف من عترتك، وتجسر مع ذلك ان تقول لامي ان تكفر بالمسيح وتبصق على الصليب! ليستدّ فمك ايها اليهودي قاتل ربّه!» فذُبحت الصغيرة وامها واخواتها للحال، مثلما سبق القول، وكان اسم الامّ الحسية الغالية «دوما ابنة ازمني»، وفي رواية

---

١) روى العلّامة السمعاني في مكتبته الشرقية (١ : ٢٨٠) عن هذا الفتى قال: «نقل البطريرك ديونوسيوس عن تاريخ يوحنا اسقف آسية ما يلي: لما قتل الحبشة ذلك الملك اليهودي وباد جميع جنوده حمير لبث في الحياة هذا الفتى وكبر واذ ألمّ الملك النصراني بما جرى له اخذه عنده ونظمه في حاشيته واحاطه بكرامة مثل كشهيد المسيح ورأسه على بلاطه وغدا محبه ومستشاره وكان اسمه «بحير». واخذ اخيراً يوفده برسائل على الملك يوستينيان وحظينا بمحادثته ردحاً من الزمان منذهلين من ارادته الصالحة ورداعته وتواضعه فكان يطوف كنائس العاصمة مصلّياً ويتصدّق صائماً دائماً حتى الماء طول الايام.»

اخرى « رومي » .

***

فلما تليت الرسالة ، وروى الرسول ما جاء به من الاخبار ، امام الملك وجاسائه ، توّلت الكآبة النصارى طرًّا . وبادرنا من فورنا الى كتابة هذه الرسالة ، باعثين بها الى حبكم ، ومبتهلين اليكم ان تسعوا حثيثاً وسريعاً بلا ابطاء ولا تغافل ليطّلع عليها الاساقفة الاطهار القدّيسون الماريون الى مصر مع المسيح ، لكيما بواسطتهم يلمّ بهذه الامور كلها رئيس اساقفة الاسكندرية . فيحضونه على الكتابة الى ملك الحبشة كيلا يغفل عن تفقّد الحميريين ، بل يتلافى حالتهم بما يمكن من الخفّة والاسراع . وليطّلع على هذه الشؤون كلّها ايضاً مدن المؤمنين كلها اعني انطاكية ، وطرسوس قيليقية ، وقيصريّة قفدوقية ، والرها ، وبقيّة مدن المؤمنين ، فيقيموا ذكرًا للشهداء والشهيدات الآنفي الذكر ، ويصلّوا على امن وسلام البيعة المقدّسة والمملكة . وليحط علماً الاساقفة طرًّا بجميع الاسواء والبلايا التي يصبّها اليهود على الشعب النصراني الموجود في بلاد الحميريين ، وما يعانيه منهم من تباريح الجوى وهجم الكنائس وهدم محالّ الشهداء الرومانيّين .

اما اساقفة المدن الرومانيّة كلها الاولون والآخرون فيؤجّجون لليهود بيوت الكنائس ومحلّات عظام الشهداء فيهدمونها تحت الصليب ، طمعاً في نيلهم قيراطاً من المال ينتفعون به . وان اليهود الكائنين في طبريّة يرسلون سنة فسنة ووقتاً فآخر كهنة منهم الى هناك لاثارة السجس بين نصارى الحميريين . فلو كان الاساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودّون ان تستقيم النصرانيّة ، لرغبوا الى الملك وعظمائه ليولوا القبض على رؤساء كهنة طبريّة وبقيّة المدن ويلقوهم في السجن . ولا نقول هذا لتجازى سيئة بسيئة بل ليتوثّقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل واشخاصاً وجيهين الى ملك الحميريين فيصبّ صاعقة الارزاء على شعب المسيح في حمير ، مثلما كل ما تقدّم لنا ذكره من ضروب الشرور والاسواء ، ويهدّدونهم بحرق مجامعهم وكنيسهم ان لم يقوموا بهذا الامر ، بل يتوعّدونهم بالطرد من تحت الصليب واستيلاء النصارى

عليهم حتى اذا بلغ ذلك مسمع ملك الحميريين تأخذه الشفقة على رفاقه اليهود، فيكفّ عن اضطهاد النصارى.

بيد اني لعارف ان ذهبَ اليهود من شأنه ان يسعى لمواراة الحقّ فيتوافر التبجّح لليهود والوثنيّين. فلولا تمكن محبة الذهب والفضة من ابناء البيعة وبرودة حبّ الرعاة لما حُرمت الرعايا من رعاة يحزنون لبؤسهم. فاننا نقول، وهم ما يهمّهم يصنعون، والمسيح الاله الراعي الصالح الذي بذل نفسه عن خرافه يصنع ما يراه بالقطيان المنتدبة بدمه الزكيّ ويعمل على ما يعضد رعيّته البائسة الواثقة بصليبه، له المجد والكرامة والمديح والسجود الآن وكلّ اوان والى ابد الآبدين.

قال الكاتب:

هذا ما وجدته، وقد تقضّيت البحث بنفسي ايضاً، فاطلعني اناس كان يبعث بهم الملك الى تلك الجهات قالوا: ان الحبشة ادركوا ملك اليهود، فربطوا في عنقه اواني خزفيّة ثقيلة ورموا به من السفينة الى غور البحر. وملك مكانه ملك نصراني اسمه «الفرنا» فشاد البيعة، ومحلّا لعظام الشهداء الطوباويّين البلاء. فليحفظ الكاتب الذليل بصلواتهم من كل سوء. آمين.